

خَلَقَ أَمْ فَوَضَى: الْعِلْمُ الْحَدِيثُ وَوُجُودُ اللَّهِ

المحاضرة ٤: مَا هِيَ الصُّدْفَةُ؟

أ.ر.سي. سرول

بَيْنَمَا نُنْتَابِعُ دِرَاسَتَنَا لِعِلْمِ الْكُونِيَّاتِ، وَالْعَلَاقَةِ بَيْنَ اللَّاهُوتِ مِنْ نَاحِيَةِ وَالْعِلْمِ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، الْأَمْرُ الَّذِي أَثَارَ الْكَثِيرَ جِدًّا مِنَ الْجَدَلِ، أَعْتَقِدُ أَنَّهُ ثَمَّةُ أَهْمِيَّةٍ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ أَنْ أَوْضَحَ أَمْرًا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ وَاضِحًا بِالْفِعْلِ، وَهُوَ أَيُّ لَسْتُ فِيزِيَاثِيًّا، أَوْ عَالِمٌ فَلِكِ. فَأَنَا مُتَخَصِّصٌ فِي اللَّاهُوتِ وَالِدِفَاعِيَّاتِ. لِكَيْتِي أَجْرُؤُ عَلَى التَّحَدُّثِ عَنِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ لِسَبَبَيْنِ. أَوَّلًا، مَعَ أَنَّنا نَعِيشُ فِي زَمَنِ التَّخَصُّصِ الشَّدِيدِ فِي الْمَجَالَاتِ الْأَكَادِيمِيَّةِ، لَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ دِرَاسَةَ أَيِّ مَجَالٍ لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ دُونَ الْإِصْطِدَامِ بِمَجَالَاتٍ بَحْثٍ أُخْرَى، لِأَنَّ هَذِهِ هِيَ طَبِيعَةُ الْمَعْرِفَةِ بِرُمَّتِهَا. وَبِصِفَتِي لَاهُوتِيًّا، أَنَا مُهْتَمٌّ بِشِدَّةٍ بِالنَّظَرِيَّاتِ الَّتِي تُوضَعُ بِشَأْنِ مَسَائِلِ كَالْحُلُقِ، أَيِّ مَسَائِلِ تُخَصُّ طَبِيعَةَ الْكُونِ وَأَصْلَ الْكُونِ. إِذَنْ، اهْتِمَامِي بِالْفِيزِيَاءِ وَعِلْمِ الْفَلَكِ قَاصِرٌ عَلَى أَوْجِهِ تَدَاخُلِ هَذَيْنِ الْمَجَالَيْنِ مَعَ اللَّاهُوتِ. لَكِنَّ السَّبَبَ الْآخَرَ لِانْخِرَاطِي فِي ذَلِكَ هُوَ أَنَّهُ بِقَدْرِ شُعُورِي بِأَنَّي غَيْرُ مُؤَهَّلٍ لِتَقْيِيمِ الْبَحْثِ الْإِسْتِفْرَائِيِّ وَالْمُعْطِيَّاتِ الَّتِي يَسْتَكْشِفُهَا عُلَمَاءُ الطَّبِيعَةِ وَيُحَلِّلُونَهَا، لِكَيْتِي مُهْتَمٌّ بِفَهْمِ طَرِيقَةِ صِيَاغَةِ هَذِهِ الْأَفْكَارِ. وَاهْتِمَامِي مُجَدِّدًا هُوَ بِالْجَانِبِ الشَّكْلِيِّ مِنَ الْمَنْهَجِ الْعِلْمِيِّ، أَيُّ جَانِبِ الْإِسْتِنْبَاطِ. لَا يَلْزَمُنِي أَنْ أَكُونَ عَالِمٌ فِيزِيَاثِيًّا أَوْ أَحْيَاءً أَوْ كِيمِيَاءً لِأَتَمَكَّنَ مِنْ تَقْيِيمِ حُجَّةِ الْإِسْتِنْتِاجَاتِ الْمُسْتَمَدَّةِ مِنْ مُعْطِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ. يَأْتِي بِنَا ذَلِكَ، كَمَا ذَكَرْتُ، إِلَى الْجَانِبِ الشَّكْلِيِّ، وَهُوَ الْجَانِبُ الَّذِي يَنْطَوِي عَلَى اسْتِخْدَامِ الْمَنْطِقِ وَاللُّغَةِ، كِلَيْهِمَا. وَنَحْنُ مَعْنِيُونَ جَمِيعًا بِالسَّعْيِ إِلَى التَّحَدُّثِ بِطَرِيقَةٍ مُرْتَبَةِ وَمُقْنَعَةٍ عَنِ الْأُمُورِ الَّتِي نَدْرُسُهَا.

مِنَ الْمُهِّمِّ أَنْ نَفْهَمَ شَيْئًا عَنِ الْمَنْطِقِ. الْمَنْطِقُ، وَهُوَ الْجَانِبُ الشَّكْلِيُّ مِنَ الْمَنْهَجِ الْعِلْمِيِّ، لَيْسَ لَهُ مَحْتَوَى. فَهُوَ لَا يَقْدَمُ أَيُّ مَعْلُومَاتٍ. وَمَا مِنْ مُعْطِيَّاتٍ دَاخِلِ الْمَنْطِقِ. كُلُّ مَا يَفْعَلُهُ الْمَنْطِقُ هُوَ قِيَاسُ الْعَلَاقَةِ الْمَنْطِقِيَّةِ بَيْنَ التَّصْرِيحَاتِ. مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِي سَنَةٍ، أَرِسْطُو، الَّذِي لَمْ يَخْتَرِعِ الْمَنْطِقَ، بَلْ عَرَفَهُ وَاکْتَشَفَهُ، قَالَ إِنَّ الْمَنْطِقَ نَفْسَهُ لَيْسَ عِلْمًا، بَلْ هُوَ مَا دَعَاهُ "الْأُورْجَانُونَ" (organon)، وَهِيَ الْكَلِمَةُ الْيُونَانِيَّةُ الَّتِي مَعْنَاهَا "أَدَاةٌ" أَوْ "آلَةٌ" كُلِّ عِلْمٍ. دَعُونِي أَكْرُرُ هَذَا. قَالَ أَرِسْطُو إِنَّ "الْمَنْطِقَ هُوَ أَدَاةُ الْقِيَامِ بِكُلِّ بَحْثٍ عِلْمِيٍّ". مَا قَصْدُهُ؟ قَصْدُهُ أَنَّ الْمَنْطِقَ صَرُورِيٌّ لِإِجْرَاءِ أَيِّ حَدِيثٍ مَفْهُومٍ. إِذَا قُلْتُ لَكُمْ مَثَلًا إِنَّ الطَّبْشُورَةَ الَّتِي أَمْسَكُهَا بِيَدِي الْآنَ لَيْسَتْ طَبْشُورَةً. إِنَّ قُلْتُ: "هَذِهِ الطَّبْشُورَةُ لَيْسَتْ طَبْشُورَةً"، فَإِنِّي لَمْ أَقُلْ كَلَامًا مَفْهُومًا. بَلْ نَاقَضْتُ فِي الْفَرِضِيَّةِ الثَّانِيَةِ تَصْرِيحِي فِي الْفَرِضِيَّةِ الْأُولَى. إِذَنْ، يُشْبِهُ الْمَنْطِقُ شَرْطِيًّا يَقْفُ فِي الزَّوَايَةِ، وَيَأْتِي بِهَرَاوَتِهِ الْكَبِيرَةِ، فَيَصْرُبُنِي عَلَى رَأْسِي قَائِلًا: "لَا، لَا، لَا، لَا". هَذَا عَيْرٌ مَنْطِقِيٌّ. التَّصْرِيحَاتُ الَّتِي أَذَلَّتْ بِهَا عَيْرٌ مُتَنَاعِمَةٌ مَعًا مَنْطِقِيًّا. وَإِنْ كُنَّا دَارِسِينَ لِلْمَنْطِقِ، وَبِالتَّالِيِ لِلُّغَةِ، يَجِبُ أَنْ نَتَمَكَّنَ مِنْ تَقْيِيمِ التَّصْرِيحَاتِ الَّتِي يُدْبِلِي بِهَا الْآخَرُونَ، بَعْضُ النَّظَرِ عَنِ الْمَجَالِ الْعِلْمِيِّ الَّذِي يَتَكَلَّمُونَ انْطِلَاقًا مِنْهُ. فَإِنَّا مَعْنِيُونَ بِتَحْلِيلِ هَذِهِ الْأُمُورِ.

نُمارِسُ جَمِيعًا جَانِبًا آخَرَ مِنَ الْعِلْمِ، يُسَمَّى عِلْمُ التَّصْنِيفِ. T-A-X-O-N-O-M-Y. التَّصْنِيفُ. إِنْ كُنْتُمْ تَتَذَكَّرُونَ، فِي الْمَرْحَلَةِ الثَّانَوِيَّةِ، دَرَسْتُمْ هَذَا الْمُصْطَلَحَ فِي عِلْمِ الْأَحْيَاءِ. أُؤَكِّدُ لَكُمْ أَنَّكُمْ دَرَسْتُمُوهُ. رَبِّمًا نَسِيتُمْ الْمُصْطَلَحَ، لَكِنَّ كَلِمَةَ "تَصْنِيفٍ" تَتَعَلَّقُ بِعِلْمٍ أَوْ مَجَالٍ التَّقْسِيمِ. هَلْ تَذَكَّرُونَ مَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فِي عِلْمِ الْأَحْيَاءِ عَنِ الْمَمَالِكِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالرُّتَبِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالشُّعْبِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالْأَجْنَاسِ وَالْأَنْوَاعِ، وَعَبْرَ ذَلِكَ؟ نُقَسِّمُ الْعَالَمَ إِلَى حَيَوَانَاتٍ وَنَبَاتَاتٍ، وَفَقَارِيَاتٍ وَلَا فَقَارِيَاتٍ، وَتَدْيِيَّاتٍ وَزَوَاحِفَ، إِلَى آخِرِهِ. وَهَذَا التَّقْسِيمُ هُوَ الشُّغْلُ الشَّاغِلُ لِعِلْمِ التَّصْنِيفِ. بَدَأَ هَذَا الْعَمَلُ، بِحَسَبِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، فِي جَنَّةِ عَدْنِ. فَأَوَّلُ مَهْمَةٍ عِلْمِيَّةٍ كُفِّ بِهَا آدَمُ وَحَوَاءُ تَعَلَّقَتْ بِالتَّصْنِيفِ. فَقَدْ دُعِيَ لِفِعْلِ مَادَا؟ لِتَسْمِيَةِ الْحَيَوَانَاتِ. وَأَمَكْنَهُمَا فِعْلُ ذَلِكَ بِبَسَاطَةٍ شَدِيدَةٍ. "هَذَا خُلِدَ الْمَاءِ، وَهَذِهِ زَرَأَةٌ، وَهَذَا فَيْلٌ، وَهَذَا وَحِيدُ الْقَرْنِ"، إِلَى آخِرِهِ. فَقَدْ وَضَعَا أَسْمَاءً أَوْ تَصْنِيفَاتٍ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ. رَبِّمًا أَبَالِغُ، لَكِنِّي مُفْتَتِحٌ بِأَنَّ الْعِلْمَ بِرُمَّتِهِ هُوَ فِي النِّهَايَةِ لَيْسَ أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ مِنْ عِلْمِ تَصْنِيفِ بَدَرَجَاتٍ دِقَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ. فَحِينَ نَعْرِفُ الْمَرِيدَ وَالْمَرِيدَ عَنِ الْوَاقِعِ، نُمَيِّزُ عَلَى نَحْوِ أَفْضَلٍ وَأَدَقِّ بَيْنَ مُخْتَلِفِ الْأَشْيَاءِ. وَتَقْيِيسُ وَنُلَاحِظُ وَنُجَرِّبُ، حَتَّى نَفْهَمَ أَوْجُهَ الشَّبهِ وَالِاخْتِلَافِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ. فَعَلَى الطَّبِيبِ الْمُتَمَرِّسِ فِي تَشْخِصِ الْأَمْرَاضِ أَنْ يَتِمَكَّنَ مِنْ مَعْرِفَةِ الْفَرْقِ بَيْنَ أَلَمٍ عَادِيٍّ فِي الْبَطْنِ وَسَرَطَانٍ قَاتِلٍ. قَدْ يَكُونُ الْإِثْنَانِ، مِنْ حَيْثُ الْأَعْرَاضُ، مُتَشَابِهَيْنِ لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى، لَكِنَّهُ يُجْرِي الْمَرِيدَ وَالْمَرِيدَ مِنَ الْفَحْصِ، لَيْسَ فَقَطَ لِتَمْيِيزِ أَوْجُهَ الشَّبهِ بَيْنَ الْأَمْرَاضِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَإِنَّمَا أَيْضًا لِاِكْتِشَافِ أَوْجُهِ الْإِخْتِلَافِ بَيْنَهُمَا. هَذَا عِلْمُ تَصْنِيفٍ. وَعِلْمُ الْمَعْرِفَةِ الدَّقِيقَةِ.

مَا عَلاَقَةُ ذَلِكَ بِدِرَاسَتِنَا عَنِ الْخَلْقِ؟ أَكْرَرُ، يَفْعَلُ الْمَنْطِقُ وَعِلْمُ التَّصْنِيفِ أَمْرَيْنِ. فَأَوَّلًا، كَمَا ذَكَرْتُ، لَيْسَ لِلْمَنْطِقِ مُحْتَوَى أَوْ مُعْطِيَاتٍ. فَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ فِعْلِيًّا إِثْبَاتَ شَيْءٍ، بَلْ يَسْتَطِيعُ الدَّخْصَ. فَهُوَ الشَّرْطِيُّ عِنْدَ الزَّاوِيَةِ. فَإِنْ اسْتَخْلَصْتُ اسْتِنْتِجَاتٍ مِنْ مُعْطِيَاتِي، وَكَانَتْ مُتَنَاقِضَةً، يَرِنُ جَرَسُ إِذْذَارِ الْمَنْطِقِ، وَيَقِفُ الشَّرْطِيُّ حَامِلًا هِرَاوَتَهُ، قَائِلًا: "اسْتِنْتِجَاكُ خَاطِئٌ". فَانْتِهَاكَاتُ الْمَنْطِقِ تَدَخُّصُ التَّضَرُّيْحَاتِ. وَأَكْرَرُ، مَا يَهْمُنَا فِي عِلْمِ التَّصْنِيفِ هُوَ الْآتِي: خَالَ عَمَلِيَّةِ التَّصْنِيفِ، نَهْتَمُّ فِعْلِيًّا بِإِظْهَارِ التَّفَرُّدِ. التَّفَرُّدِ. لِأَخْذِ كَلِمَةٍ مِثْلَ "الْكُرْسِيِّ". إِنْ طَرَحْتُ سُؤَالَ بَسِيطًا: "مَا هُوَ الْكُرْسِيُّ؟" مَا الَّذِي سَيَخْطُرُ فِي بَالِكِ؟ قَدْ تَقُولُ: "أَتَحَيَّلُ كُرْسِيًّا مُحَشُورًا بِالْقُطْنِ. أَوْ أَتَحَيَّلُ كُرْسِيًّا خَشَبِيًّا، أَوْ أَتَحَيَّلُ كُرْسِيًّا بِهِ مَسْنَدَانِ لِلْيَدَيْنِ، أَوْ كُرْسِيًّا مِنَ الْحَدِيدِ، أَوْ كُرْسِيًّا لَهُ مَسْنَدٌ مَنْسُوجٌ"، وَشَتَّى أَنْوَاعِ الْكُرَاسِيِّ فِي الْعَالَمِ. وَمَعَ ذَلِكَ، كَلِمَةُ "كُرْسِيٍّ" تَفْصِلُ شَتَّى أَنْوَاعِ الْأَشْيَاءِ عَنِ شَتَّى أَنْوَاعِ الْأَشْيَاءِ الْآخَرَى. نُدْرِكُ وَجُودَ فَرْقٍ بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْفَيْلِ، مَعَ أَنَّهُ يُمَكِّنُ الْجُلُوسَ عَلَى الْفَيْلِ وَالْجُلُوسَ عَلَى الْكُرْسِيِّ. إِذَنْ، نَمَّةَ بَعْضُ أَوْجُهِ الشَّبهِ بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْفَيْلِ. وَكَيْفَ نَفَرِّزُ كُرْسِيًّا مُعَيَّنًا، بِاعْتِبَارِهِ فَرِيدًا وَخَاصًّا؟ يَنْطَوِي ذَلِكَ عَلَى التَّنْظَرِ إِلَى الشَّيْءِ، وَمُلاَحَظَةِ أَوْجُهِ الشَّبهِ أَوَّلًا، مُقْسِمِينَ الْأَشْيَاءَ وَفَقَّ أَوْجُهَ الشَّبهِ بَيْنَهُمَا. هَذَا كُلُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ عِلْمُ التَّصْنِيفِ. ثُمَّ بَعْدَ تَقْسِيمِهَا وَفَقَّ أَوْجُهَ الشَّبهِ بَيْنَهُمَا، مَادَا

نَفْعُلْ؟ نَفْصِلُ بَيْنَهَا وَفُقْ أَوْجُهَ الْإِخْتِلَافِ بَيْنَهَا. وَهَذَا يُمَكِّنُ أَنْ يَخْتَلِطَ الْأَمْرُ عَلَيْنَا بِسُهُولَةٍ، فَتُصْبِحُ لُغَتُنَا مُبْهَمَةً، وَأَحْيَانًا غَيْرَ مَنْطِقِيَّةٍ.

مَا أَوْدُ التَّحَدُّثُ عَنْهُ الْيَوْمَ هُوَ اللَّغَةُ الَّتِي تُسْتَخْدَمُ فِي الْمُجْتَمَعِ الْحَدِيثِ لِلْحَدِيثِ عَنِ "الصُّدْفَةِ". ذَكَرْتُ أَنَّ الصُّدْفَةَ لَيْسَتْ شَيْئًا. فَهِيَ بِلَا قُوَّةٍ، لِأَنَّهَا بِلَا كَيْفِيَّةٍ. وَمَعَ ذَلِكَ، نَجِدُ أَنَا سَايَسْتَعْمِلُونَ كَلِمَةَ "الصُّدْفَةِ" كَثِيرًا وَكَأَنَّ "الصُّدْفَةَ" شَيْءٌ، وَلَيْسَتْ فَقَطْ شَيْئًا، بَلْ شَيْءٌ قَوِيٌّ بِمَا يَكْفِي لِحَلْقِ الْكَوْنِ بِأَكْمَلِهِ. إِذَنْ، السُّؤَالُ الَّذِي أَطْرَحُهُ الْيَوْمَ هُوَ: مَا مَعْنَى "صُّدْفَةٍ"؟ قُلْتُ بِإِخْتِصَارٍ فِي مُحَاضَرَتِنَا السَّابِقَةِ إِنَّ كَلِمَةَ "الصُّدْفَةِ" (chance) هِيَ كَلِمَةٌ مَشْرُوعَةٌ وَنَافِعَةٌ فِي مُفْرَدَاتِنَا وَفِي لُغَتِنَا لَوْصِفِ الْإِحْتِمَالَاتِ الْحِسَابِيَّةِ. فَمِنَ الْمُهَمِّ فَهْمُ الْإِحْتِمَالَاتِ الْإِحْصَائِيَّةِ فِي الْكَثِيرِ وَالْكَثِيرِ مِنْ تَوَاجِي حَيَاتِنَا. فَإِنَّا نَسْأَلُ: "مَا احْتِمَالَاتُ حُدُوثِ هَذَا الْأَمْرِ أَوْ ذَلِكَ؟" هَذَا سُؤَالٌ مَشْرُوعٌ. أَوْ نَسْتَخْدِمُ كَلِمَةَ "صُّدْفَةٍ" (chance) مَثَلًا فِي أَحَادِيثِنَا الْعَادِيَّةِ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَحْدَاثٍ مُعَيَّنَةٍ تَقَعُ دُونَ سَبَبٍ مُحَدَّدٍ مَعْرُوفٍ. فَتَتَحَدَّثُ عَنْ "لِقَاءِ بِالصُّدْفَةِ"، أَوْ "مُقَابَلَةِ بِالصُّدْفَةِ". فِي الْعَامِ الْمَاضِي، دَخَلْتُ مَحَطَّةَ الْقِطَارِ، مَحَطَّةَ يُونِيُونِ سْتَايْشِنِ بِشِيكَاغُو، فِي التَّاسِعَةِ صَبَاحًا. وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَتَمَشَّى دَاخِلَ مَحَطَّةِ الْقِطَارِ، بَيْنَ حُشُودِ النَّاسِ النَّازِلِينَ مِنَ الْقِطَارَاتِ وَالصَّاعِدِينَ إِلَيْهَا، تَعَرَّفْتُ فَجَاءَةً عَلَى رَجُلٍ يَحْمِلُ حَقِيْبَةً، لَمْ أَكُنْ قَدْ رَأَيْتُهُ مِنْذُ ١٥ سَنَةً. فَقُلْتُ: "أَلْ، كَيْفَ حَالُكَ؟" كَانَ هَذَا هُوَ مَنْ صَمَّمَ رَسْمَ مِسْتَرِ بِيْنَاتِ (Peanut). وَاعْتَدْنَا تَسْمِيَتَهُ رَجُلٍ مِسْتَرِ بِيْنَاتِ. قُلْتُ: "أَلْ، كَيْفَ حَالُكَ؟" فَقَالَ "آر. سي.!" وَكَانَ لِقَاؤُنَا بِالصُّدْفَةِ وَدِيًّا وَلَطِيفًا. ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى عَمَلِهِ، وَذَهَبْتُ لِأَمْضِي الْيَوْمَ فِي شِيكَاغُو. وَإِذْ كُنْتُ مُسَافِرًا إِلَى لُوسِ أَنْجُلُوسِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ فِي الْقِطَارِ الْمَسَائِيِّ، عُدْتُ إِلَى مَحَطَّةِ شِيكَاغُو نَحْوَ السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ، وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَتَمَشَّى فِي الْمَحَطَّةِ، بِمَنْ التَّقِيْتُ بِرَأْيِكُمْ؟ بِالرَّجُلِ نَفْسِهِ. كَانَ عَائِدًا مِنْ عَمَلِهِ إِلَى ضَوَاحِي الْمَدِينَةِ. كَانَ اللَّقَاءُ بِالصُّدْفَةِ، لَيْسَ بِمَعْنَى أَنَّهُ كَانَ بِلَا سَبَبٍ، بَلْ بِمَعْنَى أَنِّي لَمْ أَذْهَبْ إِلَى يُونِيُونِ سْتَايْشِنِ بِشِيكَاغُو بِهَدَفِ الْإِلْتِقَاءِ بِأَلْ يَانْجِرِنِ (Al Jungren). وَهُوَ لَمْ يَأْتِ إِلَى يُونِيُونِ سْتَايْشِنِ بِشِيكَاغُو بِهَدَفِ الْإِلْتِقَاءِ بِي. وَلِأَنَّ أَيًّا مِنَّا لَمْ يُحَظِّظْ لِلتَّوَاجُدِ فِي الْمَكَانِ نَفْسِهِ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ التَّارِيخِ، نَقُولُ إِنَّ اللَّقَاءَ كَانَ "صُّدْفَةً"، لِأَنَّ أَيًّا مِنَّا لَمْ يُحَظِّظْ لَهُ. لَكِنَّ هَذَا لَا يُسَاوِي قَوْلَنَا إِنَّ وُجُودَنَا فِي الْمَكَانِ نَفْسِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كَانَ بِلَا سَبَبٍ أَوْ هَدَفٍ. بَلْ بِبَسَاطَةٍ، كَانَ لِقَاؤُنَا تَقَاطَعًا بَيْنَ أَسْبَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ.

إِذَنْ، يَجِبُ أَنْ نَحْرِصَ عَلَى إِدْرَاكِ وُجُودِ اسْتِخْدَامِ مَشْرُوعِ لِكَلِمَةِ "صُّدْفَةٍ". وَلِلْأَسْفِ، مَا يَحْدُثُ فِي مَجَالِ الْمَنْطِقِ هُوَ أَنَّ خَطَأً مَا كَرَّرًا يُرْتَكَبُ، وَهُوَ مُعَاَلَطَةٌ مَعْرُوفَةٌ فِي الْمَنْطِقِ، تُسَمِّيهَا مُعَاَلَطَةُ الْإِلْتِبَاسِ اللَّفْظِيِّ. يَحْدُثُ الْإِلْتِبَاسُ اللَّفْظِيُّ

في حُجَّةٍ مَا حِينَ يَتَغَيَّرُ مَعْنَى اللَّفْظِ، بِشَكْلِ غَيْرِ مَلْحُوظٍ تَمَامًا، فِي وَسْطِ الْكَلَامِ. الْمِثَالُ الْمُفَضَّلُ لَدَيَّ لِهَذَا - سَرِيعًا - هُوَ الْقِيَاسُ الْإِفْتِرَائِيُّ الْقَدِيمُ الَّذِي يُنْبِتُ أَنَّ لِلْقِطْعَةِ تِسْعَةَ أَذْيَالٍ. أَسْأَلُ النَّاسَ: "هَلْ لِلْقِطْعَةِ تِسْعَةُ أَذْيَالٍ؟" فَيُجِيبُونَ: "أَلَا". فَأَقُولُ: "حَسَنًا، يُمَكِّنِي أَنْ أَثْبِتَ لَكُمْ أَنَّ لِلْقِطْعِ تِسْعَةَ أَذْيَالٍ". فَيَقُولُونَ: "لَيْتَ كَيْفَ". فَأَقُولُ: "حَسَنًا، هَلْ لِلْقِطْعِ ثَمَانِيَّةُ أَذْيَالٍ؟" فَيُجِيبُونَ: "أَلَا". فَأَقُولُ: "إِذْنًا، أَوَّلُ فَرْضِيَّةٍ هِيَ 'أَلَا قِطْعَةٌ لَهَا ثَمَانِيَّةُ أَذْيَالٍ'. فَيُؤَافِقُ الْجَمِيعَ. ثُمَّ أَقُولُ: "حَسَنًا، لَدَيَّ صُنْدُوقَانِ هُنَا. أَحَدُهُمَا فَارِعٌ، وَالْآخَرُ يَحْوِي قِطْعَةً. كَمْ يَزِيدُ عَدَدُ الْأَذْيَالِ فِي الصُّنْدُوقِ الَّذِي يَحْوِي الْقِطْعَةَ عَنِ عَدَدِ الْأَذْيَالِ فِي الصُّنْدُوقِ الْفَارِعِ؟" هَذِهِ عَمَلِيَّةٌ حِسَابِيَّةٌ بَسِيطَةٌ. مَا الْجَوَابُ؟ كَمْ يَزِيدُ عَدَدُ الْأَذْيَالِ فِي هَذَا الصُّنْدُوقِ عَنِ هَذَا الصُّنْدُوقِ؟ قِطْعَةٌ هُنَا، وَلَا قِطْعَةٌ هُنَا. ذَيْلٌ وَاحِدٌ إِضَافِيٌّ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ إِذْنًا، لَدَى قِطْعَةٍ وَاحِدَةٍ ذَيْلٌ وَاحِدٌ أَكْثَرُ مِنْ "أَلَا قِطْعَةٍ". وَإِنْ كَانَ لَا قِطْعَةَ لَهَا ثَمَانِيَّةُ أَذْيَالٍ، وَلَدَى قِطْعَةٍ وَاحِدَةٍ ذَيْلٌ وَاحِدٌ أَكْثَرُ مِنْ لَا قِطْعَةٍ. نَكُونُ قَدْ أَثْبَتْنَا الْمَطْلُوبَ إِثْبَاتُهُ، أَنَّ لَدَى قِطْعَةٍ وَاحِدَةٍ تِسْعَةَ أَذْيَالٍ. مَاذَا حَدَّثَ الْآنَ؟ أَتُصَدِّقُونَ ذَلِكَ؟ أَتُصَدِّقُونَ مَا حَدَّثَ؟ مَا حَدَّثَ فِي هَذِهِ الْحُجَّةِ الْحَادِعَةِ هُوَ أَنَّ عِبَارَةَ "أَلَا قِطْعَةٌ" تَغَيَّرَ مَعْنَاهَا فِي مُنْتَصَفِ الْحَدِيثِ. وَهَذَا مَا يَحْدُثُ مَعَ كَلِمَةِ "الصُّدْفَةِ".

أَوْدُ التَّنْوِيهِ إِلَى بَعْضِ الْعُلَمَاءِ مِنَ الْمُجْتَمِعِينَ الْعِلْمِيِّ وَالْفَلَسَفِيِّ مِمَّنْ لَدَيْهِمْ مَا يَقُولُونَهُ عَنِ لُغَةِ الصُّدْفَةِ. أَوَّلًا، أَدْلَى بُرْلُ جَانِي بِهَذَا التَّعْلِيْقِ: "الصُّدْفَةُ كَلِمَةٌ خَالِيَةٌ مِنَ الْمَعْنَى، مِنْ صُنْعِ جَهْلِنَا". سَأَعْرِضُ قَلِيلًا عَلَى جَانِي، لِأَنَّ كَلِمَةَ "صُدْفَةٍ" لَيْسَتْ خَالِيَةً مِنَ الْمَعْنَى. سَبَقَ أَنْ رَأَيْنَا أَنَّ لَهَا مَعْنَى. فَهِيَ كَلِمَةٌ مُلَائِمَةٌ لِلِإِشَارَةِ إِلَى أُمُورٍ مُعَيَّنَةٍ، مِثْلَ الْإِحْتِمَالَاتِ. لَكِنْ مَا يَقْصِدُهُ بُرْلُ جَانِي هُنَا هُوَ أَنَّ الصُّدْفَةَ خَالِيَةً مِنَ الْمَعْنَى إِنْ قَصَدْنَا بِهَا "شَيْئًا يُمَارِسُ قُوَّةَ فِعْلِيَّةٍ". وَهُوَ يَقُولُ إِنَّهَا مِنْ صُنْعِ جَهْلِنَا. يَقُولُ جَاك بُوَسُوِيَه (Jacques Bossuet): "دَعُونَا نَكْفُفُ عَنِ التَّحَدُّثِ عَنِ الصُّدْفَةِ، أَوْ الْحُظِّ، أَوْ عَلَى الْأَقْلَلِ لِنَتَحَدَّثَ عَنْهَا فَقَطَّ لِإِخْفَاءِ جَهْلِنَا". دَاوِيدُ هِيَوْم، الْفَيْلَسُوفُ الْأَسْكَوْتْلَنْدِيُّ الْعَظِيمُ، أَدْلَى بِهَذَا التَّعْلِيْقِ: "لَيْسَتْ الصُّدْفَةُ سِوَى جَهْلِنَا بِالْأَسْبَابِ الْحَقِيقِيَّةِ". هُوَ لَاءِ الثَّلَاثَةِ عَبَّرُوا فِعْلِيًّا عَنِ الْفِكْرَةِ نَفْسِهَا، وَاسْتَخْدَمُوا الْكَلِمَةَ نَفْسَهَا لِيُوصَفَ الْإِسْتِعْمَالُ الْحَاطِعُ لِكَلِمَةِ "صُدْفَةٍ". وَمَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ؟ كَلِمَةُ "جَهْلٍ". فَحِينَ نَقُولُ إِنَّ الصُّدْفَةَ تَسَبَّبَتْ فِي شَيْءٍ مَا، نَقْصِدُ أَنَّهَا لَا نَعْرِفُ سَبَبَهُ، وَأَنَّهَا نَجْهَلُ سَبَبَ حُدُوثِهِ. فَإِنَّا نَعْبُرُ لَيْسَ عَنْ شَكْلِ جَدِيدٍ مِنَ السَّبَبِيَّةِ السَّحْرِيَّةِ، بَلْ نَعْبُرُ عَنْ جَهْلِنَا.

كَيْفَ يَحْدُثُ ذَلِكَ؟ وَمَا مُشْكَلَتِي مَعَ اللُّغَةِ الْعَامِضَةِ الَّتِي تَتَرَدَّدُ فِي بَعْضِ الْأَوْسَاطِ فِي مُجْتَمَعِنَا؟ حِينَ تَمَّ إِطْلَاقُ التِّلْسُكُوبِ الْفَضَائِيِّ "هَابِل" مُنْذُ بَضْعِ سَنَوَاتٍ، كُنْتُ أَفُودُ سَيَّارَتِي عَلَى الطَّرِيقِ السَّرِيعِ، وَانْدَهَشْتُ لِسَمَاعِي الْمُدْبِعِ يَفْتَبِسُ كَلِمَاتِ عَالِمِ فِيزِيَاءٍ شَهِيرٍ جَدًّا فِي أَمْرِيكََا، وَهُوَ عَالِمٌ فِيزِيَاءٌ فَلَكِّيَّةِ، مُعَبَّرًا بِطَرِيقَةٍ شَاعِرِيَّةٍ عَنِ آمَالِهِ بِشَأْنِ

مَا قَدْ يُحَقِّقُهُ التِّلْسُكُوبُ، ثُمَّ أَذَلَى بِهِذَا التَّعْلِيْقِ: "مُنْذُ مَا بَيْنَ ١٥-١٨ مِليَارَ سَنَةٍ، تَفَجَّرَ الْكَوْنُ إِلَى حَيِّزِ الْوُجُودِ". وَبِصِفَتِي مُهْتَمًّا بِالْوُجُودِيَّاتِ، وَبِعِلْمِ الْوُجُودِ وَالْفَلْسَفَةِ وَاللَّاهُوتِ، كِذْتُ أَنْتَعَرِّضُ لِحَادِثِ سَيَّارَةٍ. قُلْتُ: "مَاذَا يَقُولُ؟" هَذَا عَالِمٌ فِيزِيَاءٌ فَلِكَيْتِ بَارِعٌ، لَكِنَّهُ غَفَا هُنَا. قَالَ: "مُنْذُ مَا بَيْنَ ١٥-١٨ مِليَارَ سَنَةٍ، تَفَجَّرَ الْكَوْنُ إِلَى حَيِّزِ الْوُجُودِ". حَسَنًا، وَمِمَّ تَفَجَّرَ؟ مِنَ الْعَدَمِ؟ أَلَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا قَبْلَ الْإِنْفِجَارِ؟ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا قَبْلَ الْإِنْفِجَارِ، فَمَا الَّذِي أَنْفَجَرَ؟ أَتَفْهَمُونَ مَا أَقُولُ؟ لَيْسَ عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ فِيزِيَائِيًّا، أَوْ عَالِمٌ فَلِكِ، لِتَرَى أَنَّ هَذَا تَصْرِيحٌ بِلَا مَعْنَى. فَسَيَّأُنِي الشَّرْطِيُّ مِنَ الزَّاوِيَةِ وَيَقُولُ: "مَهَلًا، أَذَلَيْتَ لِتَوَكَّ بِتَصْرِيحِ خَاطِي تَحْلِيلِيًّا".

دَعُونِي أُعْطِيكُمْ بَعْضَ الْأُمْتِلَةِ الْأُخْرَى. أَذَلَى عَالِمٌ حَاصِلٌ عَلَى جَائِزَةٍ نُوبِلٍ بِتَعْلِيْقٍ مَفَادُهُ أَنَّهُ فِي هَذَا الْيَوْمِ وَهَذَا الْعَصْرِ، لَمْ يَعُدْ بِإِمْكَانِنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِالتَّوَلَّدِ التَّلْقَائِيِّ. سُرِرْتُ لَدَى سَمَاعِي ذَلِكَ. ثُمَّ تَابَعَ قَائِلًا إِنَّ الْعِلْمَ الْيَوْمَ يَتَطَلَّبُ مِنَّا أَنْ نُؤْمِنَ بِتَوَلَّدِ تَلْقَائِيٍّ تَدْرِيجِيٍّ. وَمُجَدِّدًا، أَصَابَنِي الدُّهُولُ. قُلْتُ: "تَوَلَّدَ تَلْقَائِيٍّ تَدْرِيجِيٍّ؟" فَلَا يُمَكِّنُ لِشَيْءٍ أَنْ يُوْجَدَ فَجْأَةً وَبِسُرْعَةٍ وَتَلْقَائِيًّا مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ. فَكَيْ يَحْدُثُ ذَلِكَ، يَسْتَعْرِقُ الْأَمْرَ وَقْتًا. وَأَيَّدَ حَاصِلَ آخَرَ عَلَى جَائِزَةِ نُوبِلٍ هَذَا الْإِفْتِرَاحَ مُدْلِيًّا بِالتَّعْلِيْقِ التَّالِي: "لَيْسَ عَلَيْنَا سِوَى الْإِنْتِظَارِ. فَالْوَقْتُ يَصْنَعُ الْمُعْجَزَةَ. وَالمُسْتَحِيلُ يَصِيرُ مُمَكِّنًا. وَالمُمَكِّنُ مُحْتَمَلًا. وَالمُحْتَمَلُ أَكِيدًا. وَمَا يَبْدَأُ مُسْتَحِيلًا يُصْبِحُ أَكِيدًا بِمُعْجَزَةٍ. وَالمُعْجَزَةُ يَصْنَعُهَا عَامِلُ الْوَقْتِ الْمُسَبَّبِ". وَمَا هُوَ الْوَقْتُ؟ مَا وَرْزُهُ؟ وَمَا أَبْعَادُهُ؟ وَمَا هِيَ حَالَتُهُ الْوُجُودِيَّةُ؟ لَيْسَ الْوَقْتُ شَيْئًا. وَلَيْسَ لِلْوَقْتِ قُوَّةٌ. وَلَيْسَ لِلْوَقْتِ كَيْنُونَةٌ. لَكِنَّا نَعُودُ هُنَا مُجَدِّدًا إِلَى السِّحْرِ لِأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ يُخْبِرُنَا بِأَنَّهُ يُمَكِّنُ لِلتَّوَلَّدِ التَّلْقَائِيِّ أَنْ يُحْدِثَ إِذَا أُتِيحَ لَهُ مَا يَكْفِي مِنَ اللَّاشَيْءِ. أَرَى الْأَمْرَ كَالتَّالِي: الْمَكَانُ زَائِدُ الْوَقْتِ زَائِدُ الصُّدْفَةِ. لَا أَعْلَمُ عَدَدَ الْأَشْخَاصِ، الَّذِينَ يُفْتَرِضُ أَنَّهُمْ بَارِعُونَ، الَّذِينَ سَمِعْتُهُمْ يَسْتَخْدِمُونَ هَذِهِ الْمُعَادَلَةَ لِلخَلْقِ. الْمَكَانُ زَائِدُ الْوَقْتِ زَائِدُ الصُّدْفَةِ يُسَاوِي الْكَوْنَ. هَذَا فَقَطْ مَعْنَاهُ أَنْ لَا شَيْءٌ زَائِدُ لَا شَيْءٌ زَائِدُ لَا شَيْءٌ يُسَاوِي كُلَّ شَيْءٍ. بَلَغَ الْأَمْرُ الْحُضِيضَ حِينَ تَلَقَّيْتُ رِسَالَةً مِنْ عَالِمٍ قَرَأَ كِتَابِي بِعُنْوَانِ "Not a Chance"، حَيْثُ اعْتَرَضَ عَلَى انْتِقَادِي لِفِكْرَةِ اللَّاشَيْءِ، وَأَخْبَرَنِي فِي رِسَالَتِهِ بِأَنَّ الْعِلْمَ صَارَ بِإِمْكَانِهِ تَحْدِيدَ خَمْسَةِ أَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ اللَّاشَيْءِ. أَرَدْتُ أَنْ أَسْأَلَهُ: "بِمَ يَتَمَتَّعُ النَّوْعُ الْأَوَّلُ مِنَ اللَّاشَيْءِ، حَتَّى يَتَمَيَّزَ عَنِ النَّوْعِ الثَّانِي فِي تَصْنِيفَاتِ اللَّاشَيْءِ؟ وَبِمَ يَتَمَتَّعُ النَّوْعُ الثَّانِي مِنَ اللَّاشَيْءِ لَكِنَّ النَّوْعَ الْأَوَّلَ يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ؟ مَا الْجَوَابُ؟ لَا شَيْءٌ. إِنْ قَالَ أَحَدُهُمْ: "لَدَيْنَا خَمْسَةُ تَعْرِيفَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ لِلَّاشَيْءِ"، فَهَذَا تَصْرِيحٌ مَشْرُوعٌ، لَكِنَّ التَّحَدُّثَ بِكُلِّ رَزَانَةٍ عَنِ خَمْسَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ اللَّاشَيْءِ إِنَّمَا يُظْهِرُ إِخْفَاقَ الْجَانِبِ الْإِسْتِنْبَاطِيِّ مِنَ الْمَنْهَجِ الْعِلْمِيِّ فِي أَنْ يَسُودَ فِي يَوْمِنَا هَذَا.

الدكتور آر. سي. سبزل هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو (St. Andrews Chapel) في مدينة ساتفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College). وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" و"أدهشني الألم".